

الفكاهة والممارسة الاجتماعية

الباحث المالح سيد أحمد / إشراف د. بومحراث بلخير
جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

لقد عرفت عملية تحديد ماهية الفكاهة **humour** جدلا واسعا وسط الأدباء بدرجة أولى ، ثم بدرجات متفاوتة لدى المشتغلين بهذا الموضوع من النقاد الأدبيين والباحثين في مجال أنثروبولوجيا الثقافة والفن على حد سواء ، فمنهم من صاغ التعريف انطلاقا من الاشتقاقات اللسانية لفعل (فكه) على وزن (فعل) كأن يقال : ذاك رجل فكه كناية عن طيبة ودعابة في نفسه أو تفكه القوم بفلان أي سخروا منه ، ومثل ذلك كثير ، بالإضافة إلى الأمر الثاني المهم وهو وجود هذا الجذر في عدة مواضع من القرآن الكريم بمعان مختلفة ومتفاوتة مما جعلها لدى الأدباء كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي جامعة لكل أشكال السخرية والتهمك والهزأ إلى جانب الدعابة والهزل والمرح ، باعتبار كل هذه الأشكال هي مدعاة للفرجة والمتعة وإثارة الضحك في النفوس ولو من جانب واحد في حالة السخرية والتهمك .

هناك من حصر الفكاهة في المزاح والدعابة والمرح وطيبة النفس فقط كأبي نصر الجوهري وهذا الرأي الذي نجده متجليا بقوة في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأفعاله ومواقفه - التي تعبر بجلاء عن الممارسات في ذلك المجتمع- من خلال تقصي الأحاديث النبوية وأسانيدها، لنخلص أن الفكاهة مقسمة إلى شكلين أساسيين شكل ساخر وآخر مازح هزلي ، مركزين على تجلي هذا الشكل الأخير في الممارسات **pratiques** اليومية لدى الأفراد والفاعلين الاجتماعيين ، ما يجعل الطرح الذي سنؤسس له قائما على ثنائية الفرد/ المجتمع ، أي الجانب النفسي للفاعلين ومدى انعكاسه على سلوك الفرد وتفاعله مع الآخرين سواء بالسلب أو بالإيجاب ، وهذا فرض غير مباشر لهذه الدراسة يسنده افتراض آخر مفاده أن الفكاهة تخفف كذلك من وطأة القيود الاجتماعية المتمثلة في (الأعراف، القانون، الطابوهات...) لطرح مجموعة من التساؤلات قد لا يسع هذه الدراسة أن تجيب على كلها ، فعملية الإنتاج وإعادة الإنتاج المستمرة للأفكار والرموز داخل المجتمع مثلا هي بالضرورة عملية إنتاج جديد ومستمر لأشكال جديدة من الممارسات الهزلية والساخرة الخصبة ، الفنية والمثيرة في نفس الوقت لتساؤلات الباحثين في هذا المجال ما يجعلنا أمام مسألة تحيين وإعادة طرح الإشكالات والتساؤلات باستمرار للتمكن من فهم وتفسير الممارسة والظاهرة . ومن خلال ما تقدم ما هي الأشكال التي يتخذها الفكاهة داخل الممارسات الفضاءات الاجتماعية ؟ وهل تعتبر كرد فعل أو متنفس عن الكبت والجد المفرط لهؤلاء الأفراد في ممارساتهم الرسمية و الروتينية اليومية ؟ ومدى استجابة بعضهم البعض لهذه الممارسات الفكاهية وتفاعلهم معها ؟

لما يتبادر للأذهان موضوع الفكاهة قد يخيل للمستمع أو القارئ أنه موضوع أدبي أو إبداع في بحث، وهذا نظرا للمقاربتين التقليديتين الشائعتين في تناول هذا الموضوع ونقصد بذلك المقاربة الأدبية والمقاربة الفنية ، في حين أن موضوعا كهذا تنال فيه المقاربة الانثروبولوجية النصيب الأوفر خاصة بعد تحديد بنية الخطاب الفكاهي والساخري في شكله الذي يتخذ في السلوك والممارسات اليومية للأفراد ، بمعنى أننا أمام بنية خطابية رمزية متداولة شفها وليست بنية نصية يخضع البحث فيها للمنهج التأويلي الصريح غير أنه لا يخلو من الحفر وإعادة التكوين سواء داخل الشخصية الفردية أو خارجها ونعني بذلك الثقافة الجمعية التي تنتج وتدور في فلكها هذه الممارسات لتحديد الأصول المختلفة لها ، سواء على المستوى النفسي والفردى بدرجة أولى أو على المستويات الأخرى الثقافية والاجتماعية ثم السياسية والاقتصادية بدرجة أقل ، هذه المستويات التي نعتبرها أساس تحديد بنية الممارسة الفكاهية انطلاقا من تحديد بنية الفعل الفردي (قول، إشارة، إيماء، حركة...الخ).

قد يلبس الأمر في تحديد وتصنيف هذه السلوكيات سواء على مستوى تحديد الإشارات سيميائية **simiotique** أم على مستوى فهم وتشفير الرموز أنثروبولوجيا - ثقافيا- ، إلا أنه قد يزول هذا اللبس بتحديد السلوك الهزلي والمرح أثناء وبعد وقوعه بمعنى بعد خروجه من الجانب اللاشعوري النفسي و الشخصي -أي عالم الأفكار- إلى الحالة الشعورية ، حالة الفعل والممارسة ليعبر عن هذه التراكمات بشكل عفوي وأكثر تحررا ولكنها قد تتعلق في بعض الأحيان بسلوكيات غريزية عدوانية وجنسية لدى الأفراد "ينظمها المجتمع ويضبطها على نحو أخلاقي وديني واجتماعي محاولا إيجاد السبل المناسبة للتعبير عنها"^[1] كالرقابة وال ضبط الاجتماعي ولكن تبقى الفكاهة والضحك وخاصة النكتة تؤدي دورا تنفيسي كما ذهب إلى ذلك سيغموند فرويد في

معالم التحليل النفسي ذلك أنها "تخلص النفس من بعض الطاقات التي لو تراكمت لأثرت على النفس بسلبية"^[iii] وبالتالي على الجسد الاجتماعي بأكمله .

انطلاقاً من الفضاء الذي تتم فيه ممارسة السلوك أو الفعل الهزلي (فضاء عام/خاص) يمكن اعتبار السلوك الفكاهي أو السلوك الهزلي نسبياً بأنه سلوك صادر من جهة ذات طابع غير مؤسساتي في غالب الأحيان ، بمعنى صادر عن جهة غير رسمية متحررة من الرقابة وسلطة الضبط لما يميز هذه المؤسسات من الجِد والصرامة في ممارستها وطابعها النظامي والقانوني الصارم ، فمثلاً ممارسة الفكاهة والدعابة في السوق ليس كممارستها داخل المؤسسة إذ يتميز الأول بالطابع العفوي المتحرر حتى في الألفاظ والرموز **symboles** بينما الثاني في إطار المؤسسة (الجامعة، المصنع، المسجد، الأسرة...) فإنه يتميز بالحذر والانتقاء اللفظي ، وهذه الثنائيات داخل المجتمع لا نستطيع التحرر منها ، فالممارسات الجادة في الوسط الاجتماعي تعبر عن الاهتمامات المختلفة لدى الفاعلين ، وذلك حسب الأدوار الاجتماعية التي يؤديها وذلك يتمثل في تقسيم وتنظيم للعمل الاجتماعي ، فأتناء الجِد يكون كل فرد من المجتمع في مكانه المخصص له ونادراً ما تتم عملية تبادل الأدوار التي نجدها في الفعل الفاكه أو الهزلي ، فقد يتخذ الشخص الهازل شخصية الأحمق المنبؤد كما يتخذ شخصية الحاكم أو مديره في العمل ، وبالتالي كيف لمن لم يعرف الهزل والفكاهة والسخرية أن يعرف الجِد والالتزام ، فلا بد من معرفة النقيض فبالأضداد تتمايز الأشياء ونوع الممارسات.

ما يميز هذا النوع من الفضاءات الاجتماعية هو عملية تماهي الحدود الفاصلة بين الطبقات الاجتماعية على المستوى المادي أو بين الطوائف والثقافات على المستوى العرقي والعائدي و كذلك ذروة التفاعل بين الأفراد ، وهنا تتجلى القيمة الرمزية لهذا التفاعل الاجتماعي من خلال الممارسة الهزلية وهذا ما ذهب إليه كذلك ديفيد لوبروتون في سوسيولوجيا الكرنفال^[iiii] بخضوع الأدوار الاجتماعية والفوارق الطباقية لعملية تلاشي داخل النسيج الثقافي والجسد الاجتماعي، ربما لكون الكرنفالات **carnavals** حسب رأينا أو ما يسمى بالوعادات الموسمية لدينا فإن سرّ الإقبال الكبير عليها هو كونها فضاءت مفتوحة - مجانية - ، في حين لا نكاد نلمس صدى أو تفاعلاً للجمهور مع الممارسات الفكاهية أو الهزلية الممارسة داخل الفضاءات الخاصة أو المغلقة - المدفوعة الأجر - كالمرح والسينما باعتبارها فضاءات نخبوية ومحتكرة من طرف فئات معينة كما ذهب إلى ذلك بيير بورديو.

كما قد يعبر الفعل الفكاهي في غالب الأحيان عن سلوك ذو نزعة فردية ليتعدى تفاعلها **interaction** بعد ذلك إلى الآخرين (الجماعة)، ذلك أن السلوك الفردي غير الرسمي والمنفصل من رقابة القوانين والأعراف هو الذي يضفي الحيوية على هذه المؤسسات ، والمقصود هنا الممارسات الهزلية المعتدلة داخل المؤسسة ودورها في تقوية الرباط الاجتماعي بين زملاء العمل وأهمية ذلك في زيادة مردودية الموظف داخل المؤسسة ، وهذا ما ذهب إليه منظرو علم الاجتماع الصناعي سابقاً ولا يزال يقرّه المعاصرون في مجل التنظيم والعمل ، ذلك أن الجِد المفرط والصرامة تضفي الطابع الأداتي والآلي على الأفراد وتفرغهم من إنسانيتهم . وهذا ما نسميه أيضاً بالتحرر النفسي من سطوة الجِد المفرط والرقابة بشكل عام والذي لا يضر بالجهة الرسمية بقدر ما ينفعها ، فالإقدام على مثل هذا السلوك الفردي ينم عن شعور بروح المسؤولية وتحمل للعواقب.

كما أن الفعل الفكاهي أو الهزلي لا يتعدى من الأفراد إلى الجماعات كمسلمات وإنما يخضع لعملية التمثلات **représentations** والقيم **valeurs** سواء بالسلب أو بالإيجاب ، وهذا يعود بدرجة أولى إلى تحديد نوع المجتمع والثقافة السائدة فيه ابتداء ثم تحديد ثقافة الفكاهة في هذا المجتمع وكذا تقدير مسألة العرف وحدود الموضوعات التي يخوض فيها الفكاهة ، إلى درجة أننا نجد بعض النكت تعدت المجون والكلام الفاحش إلى التعدي على ذات الله، وهذه نقطة مهمة بيد أن هذه المواضيع لو تم التعرض لها رسمياً في الميدان الأكاديمي أو مجال الإبداع الفني كالسينما مثلاً لكان الرد عنيفاً والعواقب وخيمة لذلك نجدها تنفصل من الرقابة الاجتماعية إما بإدعائها الجنون أو بتواطؤ اجتماعي عام يشبه الطابو **Tabou** من جهة ، أو لعدم تجسدها في بنية خطابية نصية من جهة أخرى ، بمعنى أنها محفوظة في بنية ذهنية وشفهية تداولية متناقلة بين الأفراد باللسان والإشارات والرموز ، فلو رحت تحصي مثلاً النكت والنوادر وطرائف الكلام والحديث وتسد لها لاستحال عليك ذلك ، لأن أغلب النكت المتداولة شفهيّاً بين الناس مؤلفها أو صاحبها مجهول الهوية.

فالممارسة الهزلية في استجابة مستمرة ومتسارعة للواقع الاجتماعي و موضوعاتها تتعرض للتغيير بالقدر الذي تتعرض له الممارسات والتمثلات من ديناميكية في سلوكيات الأفراد نابعة عن القلق والكبت النفسي والاجتماعي والجدل و الاختلاف بين الأفراد على حد سواء ولكن بدرجات متفاوتة ، مما يستحيل صياغة تعميمات كلية أو نمطية بهذا الشأن بالنظر للخصوصية

الكامنة في سلوك كل فرد أو جماعة عرقية أو ثقافية معينة ما، فيما يسمى بالتحيز الثقافي^[iv] أو الخصوصية الثقافية اللتان تصعبان من مهمة الباحث في مجال العلوم الإنسانية صياغة تفسيرات وبالتالي مناهج بحث ونظريات قابلة للتعميم في هذا المجال ، مما يصدق المقولة الانثربولوجية " هذا ليس صحيحا في قبيلتي" ، فتغدو الفكاهة وكأنها فضاء هزلي لتصفية حسابات عالم الجد والصرامة.

ومن وجهة النظر والسياسي الفلسفي يتخذ الهزل حق النقد وملكة الحكم على الواقع الاجتماعي الجدّي فتعد عملية الضبط الاجتماعي *contrôle sociale* هي الفيصل بين الجد والهزل ، حيث نجد الرقابة والهيمنة جلية على الفعل الاجتماعي الجدي في حين تتملص الفكاهة والهزل من هذه الرقابة الاجتماعية وهو نمط حياة معتزل ومندمج في نفس الوقت و كأنه يمارس سلطته ووصايته على الواقع الاجتماعي بكل ثقة ، فالفكاهة تكاد تسأل وتهكم وتخوض في كل شيء في المجتمع بدون خضوع ، إنها هيمنة وسلطة مكتسبة رمزيا و كأنه عقد اجتماعي رمزي غير عادل بين الجد والهزل.

تغدو الفكاهة ظاهرة اجتماعية مثلما الضحك ظاهرة إنسانية ونفسية في نفس الوقت ، فالمجال الإنساني يعتبر فضاء أساسيا ومهما بالرغم من رمزيته لإنتاج وإعادة إنتاج مجموعة من الدلالات والرموز اللغوية يتم تداولها في الفضاء الاجتماعي مترجمة الممارسات اليومية للأفراد مثلما عبر عنه ميشيل دوسارتو بابتكار الحياة اليومية بإنتاج مستمر للألفاظ والتراكيب اللغوية إما جديدة أو كانت كامنة في التراث اللساني لذلك المجتمع ، فيقوم باستعادتها من جديد كمصطلح (فليب- فليبي) . واستعمال وتداول هذه المصطلحات ليس عملية لإعادة الإنتاج بقدر ما هو استرجاع وإعادة إسقاط لكلمات هزلية وساخرة من التراث الماضي القريب على الواقع المعيش.

فيغدو مجال الفكاهة حقلا للتفاعل الرمزي بين الأفراد تظهر نتائجه جلية بوضوح في الضحك مهما كانت مسبباته (سخرية، تهكم، تنكيت...) ، وهو رد فعل أو بالأحرى تفاعل اجتماعي مهم يعبر عن المتعة والمرح التي يخلو منها مجال الجد في حياة الأفراد، "فالممارسات التي تبدو لأول وهلة أنها لا تخدم أي غرض يجب أن تفحص لتكشف وظائفها الكامنة أي غير المقصودة أو غير المعترف بها" [v] وهذا ما ذهب إليه دي مونتسكيو في مؤلف روح القوانين بأن الطرق "التي تبدو في مظهرها عديمة الغرض...تؤدي وظيفة لدعم التكوين الأساسي للنظام الاجتماعي" [vi] ، وهذا تحليل وظيفي ينطبق بشكل كبير على دور الفكاهة كوظيفة اجتماعية تعكس الجانب السيكلوجي اللاشعوري للأفراد داخل البناء الاجتماعي.

فما يميز الممارسة الفكاهية في أشكالها المختلفة كالديابة والهزل والمزاح وما ينتج عنها من مرح وسرور ومتعة وضحك سواء من جانب الشخصية الفكاهية أو الأخرى المتلقية هو الطابع العفوي لأن "انفعال الضحك هو انفعال لذيد ، وهو يؤدي إلى حال استقرار النفس وهي الحال التي يحكم فيها العقل أحكامه الصحيحة" [vii] لأن المتلقي لهذا النوع من الفكاهة وخاصة في شكلها الساخر يوقع نفسه في حالة استعلاء وأفضلية على الشخصية المتفكه منها ، فمثلا في الكوميديا الإغريقية وبالضبط في الدراما المسرحية الساخرة فيظهر جمهور المتفرجين "أحيانا على أنه الطرف الأكثر ذكاء من الممثلين فيأتي رأيهم ليحسم الخلافات إذ يعرفون أمور الدنيا على نحو أفضل من أفراد الجوقة الذين يقفون أحيانا في ذهول كالبله" [viii] ، فيبدي هذا الجمهور المتلقي تفاعلا مع الرسالة الفكاهية بعبارات تصفير أو استهجان أو بتصفيق حار مثلا ، وقد يتخذ التفاعل بالضحك في بعض الأحيان كقناع للتظاهر من طرف المتلقي مثلما نقول بالعامية - الضحكة الصفراء - إلا أن الفعل الفكاهي يبقى يحقق رضى وانتصارا على المستوى النفسي و الذاتي على الأقل من جهة الشخص الفاكه - الفاعل *l'acteur* - وذلك انطلاقا من المشاعر الحقيقية للشخصية الهازلة التي لم تتمكن من التعبير عن نفسها في عالم الجد ، على عكس عملية البكاء أو الحزن التي قد تحمل مبدأ النفاق مثلما نقول أيضا - دموع التماسيح- ، وهذا غير البكاء الناتج عن عوامل فيزيولوجية كالعرض للألم والضرب أو الضحك الناتج عن نفس هذه العوامل كالغدغدة مثلا ، إلا أنه يمكننا الجزم بأن العفوية التي تمتاز بها الفكاهة والضحك أقوى من عفوية الحزن والبكاء ، فنزوع المرء لأن ينفجر ضاحكا من موقف هزلي ما أسرع بكثير من نزوعه لأن ينفجر باكيا من موقف محزن آخر والعبرة هنا بكثرة الممارسة لهذا النوع من السلوك والممارسة أو ذاك في الحياة اليومية للأفراد.

بعد تحديد بنية الخطاب الهزلي المتمثلة رمزيا لدى الأفراد على المستوى الذهني والشفهي التداولي تتم عملية تفسير هذا الخطاب ومحاولة فهمه على مستوى الممارسات والرموز لدى الأفراد الفاعلين ولا يتأتى ذلك إلا بتفكيك البنية الثقافية الكلية ابتداء إلى بنى جزئية على المستوى الفردي بتقنية منهجية بنوية تفكيكية ، وهذا ما أشرنا إليه آنفا بتحديد الماهية اللاشعورية

التي تسبق السلوك الفردي أولاً ثم تجلها ثانياً على مستوى الفعل الفردي وأخيراً التفاعل الاجتماعي ، فالأفراد يحملون رؤى فردية تصب في الكل الثقافي للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وهنا يشكل المبحوث وزناً مهماً في هذه العملية كونه " حامل ثقافي لتراث أمته وناقل له في نفس الوقت... وبالتالي فهو مشارك في إعادة إنتاجه" [ix] ، وما يصعب عملية الاستخبار على هذا المستوى من التفسير الأنثروبولوجي ألا وهو البنية الرمزية والشفهية المشفرة لهذا الخطاب وخاصة النكتة التي تجعله يعدل عن التفسير الإثنوغرافي التقليدي المعتمد على الملاحظات والصور المباشرة للطقوس والممارسات إلى العمل على التأويل الثقافي *interprétation culturelle* لهذا النوع من البنى الخطابية والثقافية المعقدة.

انطلاقاً من التفسير الوظيفي لنتائج السلوك أو الممارسة الاجتماعية فإنه وفقاً لأثر شتندشكومب " تعد نتائج سلوك ما أو ترتيب اجتماعي ما ، عناصر جوهرية في أسباب ذلك السلوك" [x] مما يجعلنا نعدل عن طريقة التفسير التقليدية للظواهر الاجتماعية أسباب/ نتائج ، و ننظر إليها ككل ونسق موحد .

إن ما ينطبق على وجود الأفراد وتاريخهم من خلال عمليتي التزامن والتعاقب ينطبق بالضرورة على ممارساتهم وأفعالهم اليومية ، مما يجعلها تخضع أيضاً لقوانين البيولوجيا كالموت والحياة كما هو الشأن بالنسبة للغة مثلاً ، وهذا يتوقف بدرجة أولى على استمرارية الممارسة والاستعمال أكثر مما يتوقف على التكديس والتراكم ، "إن دراسة هذه الحياة اليومية تعود لاختصاص فن أكثر مما تعود لاختصاص علم كونها تتطلب لدى الباحث نوعية من الانتباه لعالم عائم بالمعاني" [xi] وهذا ما جعل جورج بالاندييه يتوجه نحو علم اجتماع للحياة اليومية . فالوجود الاجتماعي للفاعلين يتركز على تشابك طقوس تكمن وظيفتها في إدارة العلاقات بين البشر والعالم وبين هؤلاء الأفراد فيما بينهم ، "فكل إنسان عبر مسيرته الخاصة وبأسلوبه الخاص يرمز العدد الغفير من الأوضاع التي يصادفها، إن الحياة اليومية هي المكان المميز لهذه العلاقة والممارسات لهذا اللقاء الذي يتجدد في كل لحظة، مع الحس ووحدة الإحساس إن تكرر الأعمال يؤدي إلى تأكل الشعور بعمق وخصوصية الأشياء" [xii] وهذا ما يميز طابع الجد في سلوكات الأفراد.

الهوامش والاحالات :

- 1- شعر الفكاهة في العصر العباسي، جهاد عبد القادر قويدر، رسالة ماجستير، جامعة البعث، كلية الآداب 2009، ص 35.
- 2- المرجع نفسه، ص 36.
- 3 - ينظر: أنثروبولوجيا الجسد والحدثة، ديفيد لوبروتون، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1997.
- 4- ينظر: نظرية الثقافة\ن مايكل تومبسون -ريتشارد أليس - أرون فيلدافسكي، ترجمة: علي السيد صاوي، عالم المعرفة 1997، ص 30.
- يرجع أصل كلمة قليط إلى الأصل الفرنسي *galette* لما كان الجنود الفرنسيون سنوات الخمسينيات يجوبون شوارع المدن ويوزعون قطع الخبز المحمص على الجزائريين في الشوارع ، في سياسة استعمارية للقضاء على الثورة واستعطاف السكان المحليين بقولهم (*galette galette*) فكانت المبادرة تلقى إقبالا على قطع الخبز من طرف البعض وعزواً وتهكماً في نفس الوقت من البعض الآخر ، فأطلقت كلمة قليط في ذلك الوقت على كل من كان يقبل قطع الخبز هذه ، فأصبحت الكلمة تطلق اليوم على أساس السخرية والضحك على كل من يقبل على أمر جديد وطارئ بدون تفكير وحساب ويندهش فيه.
- 5 - نظرية الثقافة، مرجع سبق ذكره، ص 178.
- 6 - Montesquieu, The Spirit of the Laws, vol 1, p 303.
- 7- نظرية أرسطوطاليس عن الكوميديا، عصام الدين حسن أبو العلا، مكتبة مديبولي-القاهرة، 1993، ص 54.
- 8- أحمد عثمان، الشعر الإغريقي- تراثاً إنسانياً وعالمياً، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والأدب والفنون، الكويت 1984، عدد 77، ص 307.
- 9- بحوث في الأنثروبولوجيا العربية، تأليف مجموعة من الأساتذة، الفصل 8: فؤاد السعيد، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، ط1 ، ص 141.
- 10- نظرية الثقافة، مرجع سبق ذكره ص 169.
- 11- أنثروبولوجيا الجسد والحدثة، مرجع سبق ذكره، ص 91-92.
- 12 - المرجع نفسه، ص 91.